الأدوار الاجتماعية لمتصوفة الجزائر خلال العهد العثماني

- يوسفي الطيب
- جامعة جلالي ليابس-سيدي بلعباس-مخبر الفكر الإسلامي في الجزائر tayebyoucefi@gmail.com

الملخص :تعتبر ظاهرة التصوف من أبرز سمات تاريخ الجزائر الحديث، اذ استطاع رجال التصوف رغم امكانياتهم المحدودة تبوأ مكانة هامة داخل المجتمع، وذلك من خلال تقوية روابط أواصر الاخوة بين افراد المجتمع والقبائل عن طريق اصلاح ذات البين وفك النزاعات .مع اعطاء أولوية للتكافل و التضامن مع الفئات الهشة و الضعيفة خلال الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد أثناء الأزمات ، أو في غياب السلطة أحيانا وعجزها عن تبني انشغالات واهتمامات الفئات الشعبية.

لقد تحولت مقرات المتصوفة) الزوايا (الى ملجأ لإطعام و إيواء الفقراء، المساكين، المحتاجين، السابلة وطلبة العلم، كما قدمت الاسعافات و العلاج البسيط للمرضى منهم، واتخذت من بعض المواسم الدينية فرصة لخدمة المجتمع روحيا، اقتصاديا و اجتماعيا .

الكلمات المفتاحية:المتصوفة -الطرق الصوفية -الزوايا -التكافل -التضامن -الإيواء -الإطعام-المواسم الدينية.

Astract: The phenomenon of Sufism is one of the most prominent features of Algeria's modern history. Sufism, despite their limited potential, has assumed an important place within society by strengthening ties of brotherhood between members of the community and tribes through the repair of disputes and disputes. Giving priority to solidarity with fragile and vulnerable groups during the difficult circumstances experienced by the country during crises, or in the absence of power sometimes and inability to address the concerns of the popular groups.

The headquarters of the Sufis (Zawaya) have been transformed into a shelter to feed and shelter , the poor, the needy, the saboteurs and the students of knowledge. They also provided the simple help and treatment for the patients and took some religious seasons to serve the community spiritually, economically and socially.

تمهيد:

عرفت الجزائر على غرار بلدان المغرب العربي انتشارا واسعا لظاهرة التصوف والطرق الصوفية خلال الفترة العثمانية، وتبوأ رجال التصوف مكانة خاصة سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي، فقد تحالفوا مع السلطة الجديدة وساهموا في توطيد أركانها و لعبت الظروف الداخلية و الخارجية دورا أساسيا في التقارب بين الطرفين.

ومن الجوانب الاساسية التي ساهم فيها متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني الجانب الاجتماعي فقد أدوا أدوارا هامة كإصلاح ذات البين والتكفل بالطبقات الهشة و المعوزة) طلبة مرضى، عجزة ، فقراء، مساكين، عابري سبيل . (وذلك في اطار وظيفة التكافل الاجتماعي من خلال الاهتمام بالإطعام والايواء والعلاج واحياء المواسم الدينية .

ولذا سأسلط الضوء في هذا المقال على دور متصوفة الجزائر خلال هذه الفترة في جوانبه الاجتماعية المذكورة.

1 - تعميق روح الانتماء والأخوة الإسلامية :

إن المواظبة على العبادة وتلاوة الأوراد وحضور حلقات الذكر كانت وسيلة فعالة ومثلى في إيجاد وعي اجتماعي وغرس توجه ثقافي وترسيخ قناعات سياسية منطلقها الإسلام وهدفها المحافظة على قيمه، وهذا ما أوجد توازنا روحيا لدى العامة وقناعات ثقافية سمحت باندماج مناطق في الإطار السياسي والثقافي للجزائر العثمانية .

لقد عوض نشاط رجال التصوف وطرقهم ذلك الفراغ الذي عرفه السكان في حواضر المغرب الأوسط وباديه بفعل الفوضى السياسية في أواخر العهد الحفصي والزياني، التي زاد من حدتها الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية واستيلائه على حواضرها، فعوض شيوخ الزاويا والطرق هذا الفراغ وحافظوا على الإسلام في حضور الجهل والظلمات وتعميق روح الإسلام في كثير من المناطق وخصوصا منطقة القبائل[1].

انّ توسع نشاط الطرق الصوفية منذ القرن السادس عشر الميلادي (10ه)، نتج عنه بعث التقاليد الإسلامية في كثير من الجماعات البربرية التي ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن التأثر بالثقافة الإسلامية، كما عملت على التقريب بين عناصر السكان، إن لم تكن قد جعلت منهم وحدة متكاملة . وبهذا المجرى الطرقي أصبحت مراكز كثيرة في إفريقيا تتأجج فيها حرارة الإسلام .وأن أتباع الطرق هم الذين تم على أيديهم إسلام القسم الأعظم من مسلمي أواسط إفريقيا وادخلوا معظم السودان في الإسلام [2] ، كما أنه لا غرابة أن نجد الطرق الصوفية قد أثرت إيجابا على تلاحم القبائل والأعراش بين بعضها البعض[3].

إن تعميق روح الانتماء في الأمة الجزائرية لم يكن ليتأتى لولا اهتمام رجال التصوف بنشر الأخوة الإسلامية بين أفراد وقبائل وعشائر المجتمع الجزائري انطلاقا من روح الإسلام الداعية إلى الأخوة ,حسب ما جاء في آيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ." [4] ولهذا أعطى رجال التصوف اهتماما بالغا بمبدأ الإخاء ونصحوا بضرورة الاجتماع والأخوة بين المريدين وعامة الناس[5] وحفلت مؤلفات الصوفية بالكثير من الكلام عن واجبات الأخوة وآدابها بين المريدين في الإقامة والسفر والعهود والمعاملات[6] .

2 - إصلاح ذات البين:

إن تمتين روابط المجتمع كان يستدعي من الولي ألا يظل قابعا في برجه الصوفي العاجي ,بل كان عليه أن يقوم بتنزيل الفكر إلى أرض الواقع ليعايش مشاكل الناس ويقرأ مشاعرهم، ويسعى إلى إقرار العدالة عن طريق التوسط .فهو تارة يقوم بدور المحكّم والوسيط والمصلح بين الدولة والرعية، وتارة أخرى يتوسط بين الناس والقبائل لحل نزاعاتهم . بل إنّه بفضل مبدأ العدالة التي تبناها المتصوفة، نجحوا في إعادة ترتيب العلاقة المتصدعة بين الدولة والقبائل، وتثبيت السلم الاجتماعي الأسري عن طريق إصلاح ذات البين بين الأزواج المتخاصمين ,فأنقذوا عددا من الأسر من التشتت والضياع.[7]

والحق أن المتصوفة في الجزائر قاموا بدور الوسيط من أجل حل المشاكل والمنازعات داخل القبيلة الواحدة وخارجها .ودافع زعماء الطرق الصوفية عن المستضعفين والمضطهدين [8]،واستعملوا كل الوسائل من أجل درأ الصدع وتعزيز الترابط بين أفراد المجتمع وتعميق الوئام بين القبائل والعشائر، وقد استغلت عوائد الوقف[9] في فك الخصومات والنزاعات بين الخصوم، ودفع الدية للطرف المظلوم، ومن ثم سهلت عملية التقارب والتفاعل الاجتماعيين , والتقليل من التناحر والبغضاء التي عادة ما تتسبب في إشعال نار فتيل الحرب بين الأطراف المتنازعة [10].

وقد أقر حمدان خوجة في كتابه المرآة بهذا الدور الفعال خصوصا داخل المجتمع الريفي الذي ظل طيلة العهد العثماني خارج سلطة الإدارة المركزية بقوله " إن وجود هؤلاء المرابطين في المجتمع الريفي نعمة، إذ بمجرد مالهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسلحة الخصوم، ويمنعون إراقة الدماء، وإن سلطانهم على نفوس القبائل الجاهلة المحدودة النظر لعجيب." [11] وبذلك كانت الزوايا وشيوخ الطرق بمثابة المحاكم الإسلامية التي يلجأ إليها المتخاصمون أفرادا وقبائل فيصلحون بينهم، ويرضون جميعا بالأحكام الصادرة والمستمدة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.[12]

هذا وقد حملت كتب التراجم والمناقب الصوفية أمثلة كثيرة لشيوخ الطرق الصوفية وزواياهم في حل النزاعات وإصلاح ذات البين بين الأفراد والجماعات، ومنها الدور قام به سيدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن اليعقوبي من أولاد يعقوب بن طلحة في عقده الصلح بين أولاد طلحة، وفي مرة أخرى بين التوارة[13] ، ونفس الدور لعبه سيدي محمد بن عبد الرحمن المعروف " بالادغم السويدي "والذي كان يكف الظالم عن المظلوم[14].

وقامت زاوية الشيخ أحمد أويحي العيدلي) تأسست في القرن التاسع الهجري (بتوسطها في حل النزاع والخصام بين الأفراد والجماعات، والحكم بينهم بالكتاب والسنة[15].

كان الشيخ المهوب بن محمد بن علي الزواوي ليتوانى في إصلاح ذات البين في أهله بزواوة.[16] ولم تستقر قرية واراسن بالقرب من برج أبي عريريج حتى جاءها محمد بن الناصر المنصوري من بسكرة 1060 ه وأقام بين أهلها وأنهى الصراع والحرب بينهم وبنى لهم زاوية ومسجدًا، ومنها اصطلحوا وفارقتهم الفتنة[17].

وأدت الزاوية الكنتية البكائية القادرية بقيادة الشيخ المختار الكبير عملا مهما في فض النزاعات بين القبائل الصحراوية، وإطفاء نار العداوة والبغضاء بينها، فيجير المظلومين ويجُزُر الظلمة، حتى صارت زاويته مسكننا للفاجر والمطيع والمسلم والكافر وكانت تؤلف بين ذات البين وتجمع بين الأعداء في حماها حتى يصيروا إخوانا .وقد كان

يتحكم في القبائل الخاضعة لمجاله وذلك بكسر شوكة القبيلة الظالمة بقبيلة أخرى أقوى منها أو مجموعة من القبائل , ويقول في إحدى رسائله " اعملوا أيها الإخوان في الله أنه لا يوجد بعد الله أثق به في الحوادث غيركم ,فجدوا في رد هذه الفتنة قبل استحكامها، واجتهدوا في إطفاء هذه الجمرة قبل اضطرامها فإن دفعكم إياها أخمد لنارها وادفع لانتشارها " إلى غير ذلك الرسائل التي كانت يوجهها إلى الرؤساء والشيوخ في رد الظلمة والجبابرة من الملوك والرؤساء [18].

وذكر عن الورثلاني أنه كان يتدخل بين الناس لإصلاح ذات البين[19] ، ويسعى إلى إحداث المصالحة في القرى التي محل اضطراب (والأرجح في منطقة مجانة) ويقول انه زار المنطقة) قبل رحلته إلى الحج لإصلاح ذات البين" إن القتال بين المسلمين في وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن ترتفع والهرج بينهم قوي أزال الله ذلك بمنه وكرمه وحكم السلطان غير نافذ فيهم ...وقد أفتى علماء بجاية على أنّه يجب على أهل الخير والصلاح ممن يقبل منه أن يصلح بين هؤلاء المسلمين وإلا عصى الله تعالى[20] "، و الشيء نفسه يقال عن الشيخ أمحمد بن حاله (ولد سنة1780 م)، الذي يستقبل الوفود للافتاء في المسائل الفقهية أو الصلح بين المتخاصمين(من أفراد وعشائر)، حتى ذاع صيته في الجهة الشرقية، فسمع به باي قسنطينة واستدعاه بعد ما وصلته فتواه وكتاباته للصلح بين الفرق المتعادية في ذلك الوقت، وعرض عليه وظيفته الدينية فرفض واعتذر [21] ، وتوفي الشيخ علي بن عمر مؤسس الزاوية العثمانية بطولقة سنة 1259هـ 1843 / م، وهو يسعى للصلح بين الناس وإطفاء نيران الفتن التي كانت تشتعل بين طوائف المسلمين من حين لآخر [22].

3 - التكافل الاجتماعي عند المتصوفة" أبعاده وجذوره:"

إن المتفحص لفحوى معظم النصوص المنقبية يلحظ أن المتصوفة لم يتركوا مجالا من مجالات الدعوة والإصلاح إلا واقترحوا بدائل واقعية للخروج من نفق الأزمة وفق سنة التدرج والبناء المرحلي، ولم يركن المتصوفة اعتزال الناس والانشغال بالعبادة كما يرى الكثير، وإنما اندمجوا في محيطهم الاجتماعي وخَبَروا مشاكله بدقة.[23]

ومن هذا المنطلق يمكن **تعريف التكافل الاجتماعي** على أنه إدراك عميق لمنفعة الناس والسعي الحثيث لتخفيف معاناتهم والأخذ بيد المستضعفين والتعساء منهم في أعمال البر والإحسان [24] ، و رغم أنّ رجال التصوف لم يكونوا على درجة واحدة من التواصل الاجتماعي، فهناك من قاموا بالتأطير الاجتماعي والديني وهناك من تصدى للتربية الخلقية والروحية، ومن ساهم في منجزات اجتماعية، ومنهم من اكتفى بإشعاعه العلمي وشغل فراغه في العبادة.

إنّ العلاقة بين الصوفية والمجتمع هي علاقة روحية بالدرجة الأولى لكن المشكلات الخاصة والدنيوية لا تغيب عن هذه العلاقة بشكل أو بآخر) تأمين حياة السكان، التدخل لفض النزاعات بين الأفراد والقبائل (... وخصوصا إذا كانت سلطة الدولة لا تتجاوز المدن في كثير من الأحيان. [25]

إنّ التكافل الاجتماعي عند الصوفية يستمد مرجعيته الأولى من النظام الإسلامي الذي يتميز بقدرته على توثيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية وللروابط الطيبة النقية أثرها في غرس المودة في النفوس وإشاعة الخير في المحيط الإنساني، وفي دائرة العلاقات بين الناس يظهر أثر الإنسان في الغير كما يظهر أثر الغير في الإنسان، ولهذا يدعوا الإسلام إلى بذل المال في الصدقة والعطف على الفقراء والمحتاجين والمساكين، وقدوتهم في ذلك الرسول صلى الله

عليه وسلم ,الذي يقول عنه جابّر رضي الله عنه "ما سئل رسول صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال : لا، وما سأله رجل غنما بين جبلين فأعطاه إياها، وبلغ من عطائه :أنه أعطى ثوبه الذي على ظهره".[27] [26]

أما المرجعية الثانية للتكافل هي أن المتصوفة اختاروا الزهد كمنهج حياة فقد مقتوا الشح والبخل وآثروا الجوع على الشبع، واعتبروا أن التكافل إنما هو التصوف وهو مراقي في سلم الولاية .صنف على أساسها المنفقون بسخاء من الأولياء ضمن أقطاب الطبقة الأولى[28] .ولإدراك شيوخ التصوف أهمية حفظ النفس في أصول الدين، أفتى ابن العريف(536هـ 1149 /م) "إن خدمة الفقراء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائجهم من الأمور المفضلة على الحج. "

يتضح من خلال هذه الفتوى قيمة التكافل الاجتماعي وارتباط العلماء بقضايا الإنسان في المنعطفات الصعبة وتقديم الإطعام على فريضة الحج لدرء خطر المجاعة[29]، ولا غرو أنّ نجد أن منزلة القوت من الدين كالرأس من الجسد[30] ، هذا وقد زخرت بلاد المغرب بنماذج ساطعة في مجال التكافل والتضامن مع فئات المجتمع في الظروف الصعبة ,ويعتبر أبو العباس السبتي (524هـ 601-هـ1132 /م1205-م) رائدَ هذا الاتجاه ومؤسسه فقد كان يرى أن لب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الأسواق والطرق ويقول "أصل الخير الإحسان وأصل الشر البخل وبذلك أصبح يعرف بصاحب الصدقة بمراكش [31]، وقد تنافس العلماء والأولياء في إعداد واستقبال الجياع "في المواضع المعدة لأفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين[32]."

لقد اعتمد المجتمع المغاربي عامة والمجتمع الجزائري خاصة على شيوخ الطرق ورجال التصوف في مواجهة الأزمات المحدقة به كالمجاعات والأوبئة والأمراض، ورغم نقص الإمكانيات المادية للتكفل بالمحتاجين فان الطرق الصوفية بذلت ما في وسعها وبما أتيح لها للتخفيف من ألام التعساء وشفاء البؤساء[33].

ومن أمثلة ذلك ما قام به الشيخ أبو زكريا يحي الزواوي (611 هـ 1215 /م)من دور كبير في تخفيف معاناة سكان مدينة بجاية لّما أصابتهم مجاعة في أوائل القرن السابع الهجري13 م، حين جمع المعونات من الأغنياء واشترى فندقا بثلاثمائة دينار وجمع فيه الفقراء المشردين واشترى لهم ما يكفيهم من الطعام واللباس إلى أن انجلت الأزمة في العام الموالي[34] ، وقامت زاوية إبراهيم التازي بتقديم أنواع الطعام والفواكه للفقراء والمساكين وذكر ابن مصعد أن الطعام كان يأتي للزاوية وليس له وقت معلوم[35].

واستمر هذا النسق في التكافل عند متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني، وسنركز في هذا المقال على نماذج من هذا التكافل من حيث الإطعام والإيواء و العلاج واحياء المناسبات الدينية وأبعادها الاجتماعية.

اولا : الإطعام والإيواء:

يبدوا أنّ إطعام المعدمين والمحرمين وإيوائهم في الظروف الاستثنائية على سبيل البر والإحسان والمواساة أهم ما كان يطمح إليه رجال الصوفية، وحرصوا على تنشئة المجتمع على قيم التضامن وسلوك التكافل ومحاربة البخل وتدعيم قيم البذل والعطاء حتى في أعوام المسغبة، وروي عن محمد بن عبد الجبار ميمون بن هارون المسعودي الفجيجي والمتوفى عام950 هـ والذي كانت له زاوية بحدوش من تاسالة، بنى بيتا للفقراء المريدين ينفق عليهم ويمونهم وباع جميع ماله من الأرض وأنفقها على مريديه .ويحكى انه قصده جمع غفير من بلاد المغرب في عام مجاعة ولم يكن عنده طعام، فأكرمه الله بتليس قمح وقصعة سمن ومعزة حملها إليه أحد الزوار فاطعم بها ضيوف[36].

وكان سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني (المتوفى981 ه)" ذا تؤده وسكون وسخاء[37]" ، واشتهر عيسى الديندي بحب المساكين وخدمتهم والقيام بشؤونهم والتقرب بكسوتهم، حتى لا تراه إلا مطعما أو كاسيا [38] ، وقد سجل الفكون [39] ألوانا عديدة من أشكال التضامن والتكافل مع الطبقة الهشة من طرف أصحاب الولاية حتى الذين قدم في حقهم نقدا لاذعا وسماهم مدعي العلم و الولاية، ومن أمثلة ذلك ما رواه عن سيدي أحمد العطار الذي قال عنه " أنّه يأوي الى جماعة الفقراء ويصاحبهم ويجتمع معهم في ليالي مخصوصة كليلة المولد وليلة الجمعة[40] ."

إن متصوفة الجزائر وزواياهم كانت دائما مضيافة للضعفاء والمحتاجين سيما أيام القحط حيث سمحت للفلاح أن يغرف من مطمورتها للأكل والزرع ، وهو غير مطالب برد المعونة، وإنما الواجب الأخلاقي هو الدافع لردها أيام اليسر[41].

واشتهرت زوايا كثيرة في هذا المجال فقد مارست وظيفتها الدينية والاجتماعية كإيواء الطلبة والسكان الفقراء والغرباء سواء في الأرياف أو المدن، ففي الأرياف برزت خنقة سيدي ناجي، وخلوة سيدي عبد الرحمن الاخضري، وضريح سيدي خالد وزاوية محمد علي المجاجي (أبهلول)، و زاوية القيطنة، وزاوية ابن على الشريف ومارست زوايا المدن نفس الدور مثل زاوية الفكون بقسنطينة وزاوية مازونة وزاوية عين الحوت بتلمسان وزاوية محمد التواتي ببجاية ، وزاوية مولاي حسن بالعاصمة كانت سكنا للغُرّاب وزاوية سيدي أبي عتيقة تستقبل الفقراء والمرضى والعجزة ، وزاوية سعيد قدورة مخصصة لاستقبال فقراء العلماء، وزاوية علي الزاوي للعامة.[42]

وفي الجنوب الجزائري أدت زواياه نفس الدور، وهو ما أشاد به العياشي في رحلته فقد ذكر انه زار زاوية سيدي احمد بن موسى بضواحي الساورة (بشار) ووصفه انه يحسن لأهل الأسفار[43] .وفي منطقة واحات توات ظهرت زوايا عديدة قامت بأدوار اجتماعية هامة مثل زاوية سيدي عبد الله بن طمطم بقرية الذغامشة التي أثنى عليها الركب من أصحاب العياشي وقالوا "إن صاحبها من أهل الخير وهو يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء."[44] وعمل مؤسس الزاوية الزيانية على توفير الماء بالزاوية وفي غيرها للسابلة وأهل البلاد الذين كان يعوزهم نقص الماء[45]، وهو ما يبدوا أنه حرك من عجلة توفير الغذاء عن طريق تنشيط الزراعة.

وفي منطقة القبائل حدّت الزوايا من مظاهر البؤس الاجتماعي وساهمت بصفة أساسية في أبعاد شبح الجوع و التشرد عن سكان الريف مثل زاوية عبد الرحمن اليلولي واحمد بن إدريس وابن علي الشريف)شلاطة (هذه الأخيرة كانت تتوفر على ست رحى تشتغل باستمرار لتوفير الطعام للفقراء ,ولمن يقصدها من الزائرين ولسد حاجات طلبتها.[46]

وتجدر الملاحظة أنّ الأنشطة التكافلية لشيوخ التصوف والزاويا خضعت إلى لغة البركة والكرامة من خلال حصول الكفاية من القليل أو تكثير القليل أو إحضار غير المنتظر، والأمثلة في ذلك كثيرة نكتفي بذكر البعض منها : فقد رُوي عن محمد بن علي ابهلول المجاجي(945ه1002 /م) أنه كان يطعم الطعام وزاويته معدة لإقراء الأضياف، وأنه أطعم في ليلة واحدة نحو1300 مجاهدا في ثغر تنس وأفاض عليهم بالثريد واللحم والعسل والسمن حتى شبعوا.[47] و ذكر عن أبو الحسن علي بن محمد الزواوي أنه جاءه صاحب عيال تعرض إلى فاقة قوت ، فأخرج له

الشيخ أربعة أمداد قمحا، وقال له لا تتناول منها إلا وأنت على طهارة .قال :ولزمت ما قال لي وكان ذلك في آخر الشتاء وأوائل الربيع فكفاني ذلك وعائلتي حتى وصلنا إلى الأكل من حرثنا بعد دخول زمن الصيف[48].

وبالغ شيوخ الولاية في إكرام محتاجيهم حتى وصل الأمر بسيدي احمد بن سعيد العفيفي وهو من أهل القرن الحادي عشر والذي انتفع به فقراء زمانه أن يبعث إلى ضيوفه من الفقراء والسابلة والمساكين، وإذا أبطؤوا عليه ضاق وحزن، وإن أتوا إليه سرّ وفرح[49] .وكان سيدي محمد صالح الورثلاني يطعم الطعام لليتامى والأيامى من النساء والمحتاجين كل يوم وكأن وليمة عنده[50] .

وفي أواخر العهد العثماني قام المرابط بن عودة من عائلة الغبريني في شرشال بتقديم المعونات اللازمة للمحتاجين أثناء مجاعة عام1811 م [51] ،وذكر صاحب المرآة أنّ المرابط بن عيسى كان له ممثلين يجمعون الغلال ويوزعونها على الطبقة المعوزة، وكأن له دار ضيافة في كل مسجد يطعم فيها المسافرين ويأويهم بلا مقابل وكذلك الأمر بالنسبة للحيوانات التي يستعملونها والتي ترافقهم[52].

هذا و قد تحولت أماكن دفن شيوخ الطرق والزوايا والمرابطين إلى مزارات تعود الناس أن يتصدقوا فيها على الفقراء فيوزعون عليهم الخبز والدراهم، أملا في أن يستجاب دعائهم [53] وبهذا نفع المتصوفة المحتاجين والأيتام والأرامل والمرضى وأبناء السبيل في حياتهم ومماتهم.

ثانيا : العلاج:

قدم المتصوفة بالموازاة مع الإطعام والإيواء خدماتهم في معالجة ومداواة المرضى والتخفيف من ألامهم وأوجاعهم سواء الجسمية أو النفسية عن طريق علاج بسيط لكنهم مع ذلك يجدون راحة نفسية لاعتقادهم في بركة الشيخ[54] وقد زاد من تعميق هذا الدور الطرق إهمال الحكام لأمور الصحة وعدم ايلائها العناية اللائقة [55] بل يبدوا من خلال بعض المصادر أن استعمال الطب في المجتمع الجزائري يكاد يكون منعدما.[56] هذا إذا استثنينا بعض المبادرات والاجتهادات من بعض الحكام سواء على المستوى المركزي أو المحلي مثل الدور الذي قام به محمد باي الكبير[57] ، الذي يجهز بنفسه الأدوية المختلفة ويوزعها على أفراد الشعب ويتفاخر بذلك ويقول" أنا طبيب الفقراء" [58].

إن نقص الصيدليات والمستشفيات جعل رجال التصوف و زواياهم يقومون مقام هذه المرافق الصحية باستقبال الحجيج والمسافرين والفقراء وتقديم لهم بعض الإسعافات[59] ،واستعمل السكان وسائلهم الخاصة كالالتجاء إلى الأدعية والأحجبة وبصاق الأولياء وتمائم السحرة المشعوذين[60].

وفي هذا الإطار كثر الوافدون على زاوية علي الزواوي اعتقادا منهم أن ماءها يبرئ من العقم ويحفظ الأولاد ويذهب الحمى[61] ، وحظيت الزاوية الراشدية مقر ضريح الولي أحمد ابن يوسف الملياني بتوافد أعداد هائلة من الزوار طلبا للشفاء اعتقادا في أنّه ما دخل القبة عليل إلا شفي ,ولا مريض إلا برئ [62] ، والشيء نفسه يقال عن الشيخ سليمان المجدوب دفين مرتفعات شطابة ضواحي قسنطينة، إذ كان السكان يقصدونه طلبا للشفاء من الأمراض

والعلل[63] ، وكان ضريح سيدي ،حمد نكروه وهو من صلحاء القرن الحادي عشر16 م يأتيه الناس لأنه يشفي المرضى بمجرد اللمس والتحدث ومن دخل ضريحه خف ألمه.[64]

هذا وتجدر الإشارة إلى أن رجال التصوف ساهموا في الطب والصيدلة من خلال تشخيص الداء وتبيان الدواء، ويتضح ذلك من خلال مؤلفات ابن حمادوش وأحمد البوني فقد ألف الأول قاموسا طبيا اسماه" كشف الرموز "والثاني" إعلام أهل القريحة[65]" ، وجمع محمد بن سليمان بين التصوف والطب ونظم رجزا في الموازين والمكاييل الطبية والشرعية.

ونقل عن سعيد المقري اهتمامه بالطب والتشريح، كما أن محمد بن احمد الشريف صاحب كتب المناقب والتصوف، ألف في الطب النبوي كتاب" المن والسلوى في تحقيق معنى حديث لا عدوى[66] ."وعالج محمد بن رجب الجزائري أمر الطاعون في رسالة سنة1200 هـ سماها ":الدواء المصون في تدبير الوباء والطاعون "[67].

ثالثا : المواسم الدينية وبعدها الاجتماعي التكافلي :

دأب رجال الصوفية على إحياء المواسم الدينية[68] ، التي يجتمع فيها أفراد الطريقة ومحبيها لتصفية معاملاتهم وتصريف إنتاجهم وعقد صفقاتهم، إذ تقوم الزاوية بدور الوكالة الاقتصادية التي تسهر على القيام بالأعمال الضرورية للقبيلة وتشجيع المتبادل في المنطقة التي تخضع لنفوذها.[69] كما أن هذه المواسم هي فرصة نادرة يتوفر فيها الرخاء وعادة ما تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة الزراعية وبالأخص بدورة زراعة الحبوب فهي فرصة للاعتراف بالجميل) الشكر (وللتبرك وهي فرصة تجارية هامة لإقامة سوق كبيرة تباع فيها المواشي والحبوب والثياب والحلي , ويجتمع فيها المختصون في علاج الأمراض والموسيقيون والشعراء والفرسان، كما تكون فرصة لتبادل الأنساب [70].

ويقترب الزائرون خلال المواسم الدينية إلى أضرحة الأولياء وهو ما يساهم في تحقيق الانسجام والتوازن الاجتماعي خاصة في مواجهة الخلافات والنزاعات وكونها ملجأ للهاربين من العقوبات أو القتل أو المتابعة القضائية من الحكام .وبهذا باعتبار الزاوية أو الضريح مكانا آمنا لا تنتهك حرمته والملجأ الذي لا يجرؤ أي حاكم على التعدي عليه.[71] وهكذا وفرت لهم الأمن والعدالة و الرعاية الاجتماعية.[72]

وتوفر هذه الزيارات الراحة النفسية والتعبير عن الارتباط بالطريقة وشيخها وتعاطي التصوف والتكافل مع الفئات الفقيرة بتوفير الإطعام لها وإدخال البهجة عليها [73] .كما تستغل في تنشيط روح التآزر عن طريق إصلاح عطب ما أصاب الفقارة أو حفر بئر أو بناء مسجد أو حصاد غلة أو غيرها من الأعمال الجماعية التي ليس بوسع الإنسان القيام بها بمفرده ,وتظهر ألوان هذا التكافل خصوصا في منطقة تمنطيط[74].

الاحالات و الهوامش :

1 - ناصر الدين سعيدوني ,في الهوية والانتماء الحضاري، البصائر، الجزائر، . 2013ص.140

2 - عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام ,ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ,ط7، ج3، .1994 ص-ص: .253-249

3 - أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائرخلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، .2007 ص.135

4 - سورة آل عمران، الآية.103

5 - عبد المجيد الصغير، التصوف وعي وممارسة، دراسة في الفلسفة الصوفية عند أحمد بن عجيبة، دار الثقافة الدار البيضاء، ط1، .1999ص.147

6 - من أهم المؤلفات التي اهتمت بهذه القضية :كتاب الإحياء للغزالي، ولواقح الأنوار القدسية للشعراني وغيرها

7 - مجموعة من المؤلفين، التصوف السني في بلاد المغرب ، منشورات الزمن،الدار البيضاء، المغرب، ط2، .2013 ص38 .

8 - عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السوداء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، .1982ص : .135

9 -الوقف :في اللغة الحبس يقال وقف يقف وقفا أي حبس يحبس حبسا، وفي الشرع حبس الأصل وتسبيل الثمرة، أي حبس المال وصرف منافعه في سبيل الله وهو نوعان وقف أهلي ووقف خيري.

10 - أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص.159

11 - حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، .2008 ص.19

12 - صلاح مؤيد العقبي ,في الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، دار البصائر، .2009ص.291

13 - ابن مريم التلمساني ,البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ,ديوان المطبوعات الجامعية ,الجزائر1986 ,، ص.134

14 - نفسه، ص.290

15 - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص: .310

16 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2،ج1،.2005ص.488

17 - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق خير الدين شترة، دار كردادة ، بوسعادة،الجزائر،ط1، ج2، .2012 ص،ص: .546-545

18 - أحمد شيخي، الطريقة البكائية الكنتية بالصحراء ودورها العلمي والصوفي، زوايا في المغرب،منشورات وزارة الثقافة مطبعة دار المناهل، ج2، .2009 ص: .185

19 - أبو القاسم سعد الله، ، المرجع السابق،ج2، ص: .394

20 - عبد الرحمن عزي، التواصل القيمي في الرحلة الورتلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار،مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، .2011ص: .79

21 - يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، البصائر،ج1، .2009 ص.137

22 - صلاح مؤيد العقبي،المرجع السابق، ص: .265

23 - مجموعة من المؤلفين ، التصوف السني في بلاد المغرب ، المرجع السابق، ص، ص: 206 ،.207

24 - نفسه، ص: . 42

25 - إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن15 ، دار الرشاد،، الدار البيضاء، ط1،ج3،2000 ، ص-ص: .50-52 .

26 - رواه مسلم

27 - عبد الحق حميش، السلوك والعلاقات الاجتماعية، جريدة الخبر، العدد7333 ، الاثنين 3فيفري2014 ، ص : .18

28 - مجموعة من المؤلفين، التصوف السني في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص،ص : .224-223

29 - نفسه، ص: .225

30 - ابن قنفد القسنطيني ,أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص : .109

31 - عبد العزيز بنعبد الله، معلمة التصوف الإسلامي،دار المعرفة، الرباط، المغرب، ط1،2001 ، ج1، ص: .85

32 - ابن مرزوق التلمساني ,المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، .1981 ص: .413

33 - عمار هلال ، المرجع السابق،ص: .138

34 - الطاهر بونابي ,التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7ه و13و 14الميلاديين ,دار الهدى للنشر والطباعة، عين مليلة ,الجزائر، 2004، ص.188

35 - ابن مصعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، منشورات ANEP ،2004،ص-ص: .198- 159

36 - ابن مريم التلمساني، المصدر السابق ،ص: .288

37 - نفسه، ص: .261

38 - عبد الكريم الفكون ,منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ,تحقيق أبو القاسم سعد الله ,دار الغرب الإسلامي ,ط 1, 1987ص: .146

39 - عبد الكريم الفكون (1073-988 ه) :من أسرة علمية شهيرة ,ساهمت في توطيد الحكم العثماني بالجزائر وتمتعت بامتيازات واسعة , يعتبر الفكون من كبار علماء عصره وتولى مشيخة الإسلام ,وإمارة ركب الحج ,واشتهر بالتدريس والتأليف ويعتبر كتابه منشور الهداية من أهم مؤلفاته ينظر الى : المهدى البوعبدلي ,عبد الكريم الفكون القسنطيني ,الأصالة ,العدد ,51 ص 14 وما بعدها .

40 - عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: .92

41-Octave depont et xavier coppolani , les confreries religieuses musulmans ,adolphe jourdan imprimeur libraire Alger-1897 ,p :230.

42 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق،ج1، ص-ص: .270-268

43 - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، .1979 ص: .68

44 - نفسه، ص: .70

45 - أبو القاسم سعد الله، ، المرجع السابق،ج1، ص. 505

46 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص.154

47 - أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ج2، .2012 ص: .429

48 - نفسه، ص، ص: 268، .269

49 - نفسه ,ص - ص: .62-60

50 - نفسه، ص،ص384:،.385

51 - الشريف كمال دحومان الحسني، أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية، ط1، .2009 ص.110

52 - حمدان خوجة، المصدر السابق ، ص.21

53 - نفسه، ص.20

54 - ناصر الدين سعيدوني ,المرجع السابق ، ص.154

55 - ناصر الدين سعيدوني ,دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، 1988.ص125.

56-Mersiol (e), la regence d'alger vue par un allemand au 18 Ciecle, la societe historique d'alger, 1930, P : 309.

57 - محمد باي الكبير :باي الغرب (1779-1796)يعد من أهم بايات الجزائر اشتهر بإصلاحاته وفتح مدينة وهران 1792، وافتكاكها من الإسبان.

58 - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر(1706-1791)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1986 ،ص.142

59- Boyer(p),la vie quotidienne à alger à la veille de l'intervention francaise,paris 1963.p :207

60 - أبو القاسم سعد الله، ، المرجع السابق، ج1، ص. 167

61 - نفسه، ص.270:

62 - الصباغ، بستان الأزهار في مناقب الأخيار ومعدن الأنوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار مخطوط بالمكتبة الوطنية ،الجزائر ، رقم1707 ، نسخ1140 ه1727 ,م ,ورقة رقم 32 وجه.

63 - أوجين فالسيت ،تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي (1792-1873) ، ترجمة صالح نور، دار قرطبة، الجزائر،ط1، 2010. ص: 185.

64- Joly (A),"saints de l'islam",in RA n°52,1908,OPU,alger, 1986,p:178,179.

65 - أبو القاسم سعد الله، ، المرجع السابق، ج2، ص: 417.

66 - نفسه ,ص ،ص420 :،.421

67 - أبو القاسم الحفناوي ,المرجع السابق ,ج2، ص: 463.

68 - من أهم المواسم الدينية :الموسم، الوعدة، النشرة، الزردة.

69 - ناصر الدين سعيدوني ,في الهوية والانتماء الحضاري ,المرجع السابق ,ص: 155.

70 - لطيفة الأخضر ,الإسلام الطرقي، دار سيراس للنشر ، تونس، 1993. ص،ص : 63،64.

71 - يعرف هذا الامتياز الذي تحوزه الزوايا " بحق العناية."

72 - ناصر الدين سعيدوني ,في الهوية والانتماء الحضاري ,المرجع السابق ,ص،ص154 :،.155

73 - سي فضيل مني، الزوايا والأولياء الصالحون في الجزائر، أطروحة دكتوراه علم الاجتماع الثقافي ، جامعة الجزائر، 2010/2011 ،ص،ص181:،.182

74 - أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق،ص،ص228:، .229